الأهرام

المصدر: الحياه

التاريخ : ٨ مارس ٢٠٠٥

انتصار رفيق الحريري

رشيد حسن *

■ كان اغتيال الرئيس رفيق الحريري ولا شك منعطفا حاسما في تاريخ لبنان الحديث. ومن المؤكد أن اسمه سيقدم للأجيال المقبلة من طلبة المدارس والجامعات باعتباره رجلا تمكن وبرغم المعوقات العديدة التي ارتفعت في وجهه من إعادة بناء وطن مهدم وممزق ووضعه مجددا على خريطة الأمم الحية والمعترف بوجودها في العالم. ومن المفارقات المدهشة أن يكون هذا الرائد الكبير استحق اعترافا شاملا بالجميل فقط بعد موته بتلك الوسيلة البربرية والمفجعة، وأن يكتشف كل اللبنانيين تقريبا كم كانوا يجهلون الرجل وكم كان قدر الظلم والألم الذي تحمله بصمت، لا لشيء إلا بسبب كونه كبيرا في بلد كان معظم الكبار فيه قد قتلوا أو شردوا. ولأنه أصر وهو الذي كان في إمكانه أن يعيش حياة هانئة ومرفهة أن يأتي فيضع حجمه وأمواله ومؤسساته ورؤيته الإعمارية كلها في تصرف بلد بدا لكثيرين أنه أصبح ركاما لا أمل في عودته إلى الحياة..

استثار الحريري بحجمه الاقتصادي وعلاقاته السياسية الدولية منذ البدء حفيظة الذين لم يكونوا يريدون للبنان أن ينطلق مجددا كدولة عزيزة وكاقتصاد مزدهر وقادر. إذ لم يكن في حسابهم أنه سيتسنى لهذا البلد وشعبه الدؤوب رجل تاريخي بمقياس الرجال الاستثنائيين الذين بنوا أوطانا بعد الحروب المدمرة مثل المستشار كونراد أديناور في ألمانيا الغربية أو الجنرال ديغول في فرنسا أو الملك فيصل الأول في العراق. لم يكن ذلك في حسبان اللبنانيين أيضا وهم الذين فقدوا ثقتهم بأنفسهم وأخذ اليأس منهم أي مأخذ فتفرقوا في زوايا الأرض يبحثون عن أوطان «بدل عن ضائع» تفتح لهم ذراعيها وتعطيهم الفرص التي حرموا منها في بلاد أجدادهم.

لكن الحريري الذي نشأ فقيرا ومغمورا وهاجر مثل ملايين اللبنانيين بحثا عن لقمة العيش عاد إلى لبنان عملاقا بحجم الكارثة التي ألمت ببلده، كما لو أن الأقدار الرحيمة اصطفته ثم أعدته ووضعت في يده كل الوسائل والخبرات وجعلت فيه كل مقومات الزعامة التي تؤهله لإقالة البلد الجريح من عثرته. لم يكن صدفة لذلك أن يتحول الرجل إلى حضور ثقيل ومزعج يقض مضجع العاملين على تقزيم البلد والكارهين لقيامته. فهؤلاء يعلمون أن القيامة الشاملة للبلد واعادة بناء مؤسساته الاقتصادية والدستورية والمدنية والعسكرية والقضائية والتعليمية ستوفر له من الثقة بالنفس والقدرة على التحرك مجددا كبلد مستقل وستهيئ للبنانيين أسسا صلبة لوحدة وطنية حقيقية تجعل من حياتهم السياسية المعروفة بحيويتها مصدرا محتملا لكل أنواع الأخطار.

اعتقد البعض في البدء أن الرجل مجرد ثري يبحث عن وجاهة يشتريها بالمال. لكن سرعان ما تبينت «خطورته» عندما ظهر أنه فعلا مشروع زعيم وطني يحمل حلما ومشروعا كبيرا. من يومها بدأ الحريري يشكو بصوت خافت من استراتيجية التعويق والتأخير واستنزاف الإرادات. وكلما كان ينجح في توظيف أوراقه الكثيرة للتسريع في مشروعه ولحماية مسيرة البلد كلما كان الضغط عليه يزداد عنفا وحزما وتحت شتى الذرائع.

لكن وبرغم كل الإعاقات دخل الحريري على لبنان المهدوم مثل إعصار في سرعة حركته وشمولها لكافة المجالات. لم يؤمن كثيرا بالمراحل وسياسة التدرج المألوفة في الأوضاع العادية. فهو تعلم في المملكة السعودية ومنذ المشروع الكبير الأول الذي نفذه هناك فن التنفيذ السريع للمشاريع الكبرى. وحمل الحريري إلى لبنان خبراته في الإعمار الشامل وعلى جبهات عدة في وقت واحد، وهذا هو المفهوم الوحيد الصالح لبلدان خربتها الحرب وتحتاج بالتالي إلى ورش إعمار ضخمة وشاملة تمكنها من العودة إلى الحياة في سرعة تكفي لإحياء ثقة الناس بالبلد واستقطاب الاستثمارات وإطلاق ديناميكية الاقتصاد (مشروع مارشال في أوروبا). عرف الحريري بغريزة رجل الأعمال والسياسي المحب لوطنه كل هذه الأمور، أو قل ربما كان لديه حدس غامض بأن عليه العمل بسرعة قبل أن تنال منه

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

الأيادي المتربصة والتي كان ربما يعرف عنها الكثير.

كلنا يعلم الآن أن الرجل الذي هيأته الأقدار ليكون رافعة لبنان الحديث لم يكن يهدأ فكان يعمل بلا انقطاع، ليل نهار، في مسعى لتحويل حلمه الكبير إلى حقيقة على الأرض وفي أقصر مدة ممكنة. وقد نجح عن هذا الطريق فقط وبسبب الطاقة الجسدية والذهنية الهائلة التي وهبت له وكذلك بسبب قدرته الاستثنائية على التمدد السريع عبر المؤسسات والاستخدام الفعال للثروة الشخصية والعلاقات الدولية وتجميع النخب الفاعلة والتعاطي الكثيف والذكي مع الإعلام، تمكن عبر كل تلك الوسائل من تحقيق ما يجب النظر إليه اليوم كمعجزة لبنانية جديدة بالنظر لحجم ما تحقق والسرعة القياسية التي تحقق بها. وعن هذا الطريق بالذات كان الحريري أشد مكرا من خصوم مشروعه فأخذهم على حين غرة وغافلهم إلى أن عبر باللبنانيين إلى الضفة الأخرى ومكن لبنان بالتالي من اجتياز خط اللاعودة كوطن أعيد ترتيبه وتثبيت شرعيته الدولية وحقه في الحياة.

وبهذا المعنى بالتحديد يمكن القول أن الحريري اغتيل منتصرا ومن خصوم مهزومين حاولوا القضاء عليه وعلى إنجازاته ومشروعه الأكبر لكن بعد فوات الأوان. ولا يوجد دليل على انتصار الحريري، حتى في موته، أكبر من استمراره في مؤسساته وفي أسرته النبيلة وفي إنجازات الإعمار وقيامة البلد الاقتصادية وما تركه لأبنائه ولبنان من صداقات وعاطفة جياشة عربية ودولية، وأخيرا في ما شهدناه جميعا من انتفاضة اللبنانيين وعملية الصهر الوطني التي تغذت بالدماء الزكية لهذا الرجل الاستثنائي.

لقد أعاد الحريري إلى اللبنانيين بلدهم، وكرامتهم الإنسانية وأملهم بالحياة والتطور واللحاق بالمجتمعات المتمدنة والسعيدة، وهو بذلك أعطاهم قضية حقيقية بحجم الوطن. قضية كانت كافية بسبب ضخامتها وما يرتبط بها من قيم وآمال وانفعالات للجمع بينهم ولتوحيدهم على ميثاق جديد يمحو الكثير من رواسب الماضي ويؤسس لمستقبل مشرق هذه المرة. وبسبب الحريري ولد لبنان للمرة الأولى كوطن ناجز وليس كتسوية بين أوطان واكتسب العلم اللبناني للمرة صفة الراية التي يجتمع حولها شعب واحد وتحول النشيد الوطني الذي كان ينظر إليه باعتباره فولكلورا محركا للمشاعر ونشيد اعتزاز جامع للبنانيين. فوق ذلك كله، أهدى اغتيال الحريري لمواطنيه شخصية بطولية أصبحت الآن عامل توحيد ومصهر لنضالهم المشترك، كما أنه وهذا هو الأهم أعطاهم شهيدا، يكاد يقترب في مكانته ورمزيته من شخصية جان دارك في التاريخ الفرنسي من حيث الدور الهائل الذي يلعبه الآن في بلورة الفكرة اللبنانية وإلهام نضال اللبنانيين ووحدتهم الوطنية وجرأتهم على مقارعة الاضطهاد والظلم، وليس صدفة لذلك أن يلبس المثوى الأخير للرئيس الشهيد مهابة المزار الجامع للبنانيين وأن يتحول إلى محجة تحيط بها الشموع والأدعية والابتهالات من كل صوب.

قبل رفيق الحريري لم يكن للبنان شهيد استقلال بحجم الأبطال التاريخيين ومؤسسي الأوطان. الآن قدم الحريري نفسه قربانا غاليا لاستقلال حقيقي يشعر اللبنانيون مع انبلاج كل صباح جديد أنهم سيستحقونه هذه المرة بفضل التحدي والنضال والصبر على العذابات وأضحيات الدم، وبالتالي فإنه استقلال مؤهل لأن يدوم. ويختلف هذا الإنجاز الوطني الكبير عن استقلال ١٩٤٣ الذي لم يحظ بإجماع حقيقي، فكان بذلك «نصف استقلال» إذا صح التعبير لأن قسما من اللبنانيين أيده حقيقة بينما بقي قسم آخر مترددا ومتشككا وعينه وقلبه منشغلان بأحلام الوحدة العربية.

أما استقلال اليوم فإنه ويا للمفارقة يتعمد بدم شهيد من الذين بدأوا حياتهم في الحركة القومية العربية، وهو بالتالي استقلال يفتديه مسلمو لبنان بنفس الحمية والإصرار اللذين يظهرهما إخوانهم في الوطن من المسيحيين. ذلك هو الإنجاز الأخير لرفيق الحريري وانتصاره المستديم. فهنيئا له في حياته العظيمة وهنيئا له في جهاده العظيم وهنيئا له في موته الذي ينبجس اليوم وطنا عظيما.

* كاتب لبناني.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية